أضواء على إيجابيات وسلبيات الدولة العثمانية

قدمت الدولة العثمانية خدمات جليلة للإسلام والمسلمين، فشملوا الأماكن المقدسة في الحجاز برعايتهم، وبنيت الكعبة المشرفة في عهد الدولة العثمانية في عهد السلطان مراد خان ١٠٣٩هـ.

كما أوقف العثمانيون تقدم الزحف الاستعماري البرتغالي على البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربي؛ إذ كان من أهداف البرتغاليين الزحف على مكة واقتحام المسجد الحرام، بيد أن الدولة العثمانية جعلت من اليمن قاعدة حربية للدفاع عن البحر الأحمر ومنع السفن البرتغالية من دخوله.

وحافظت السلطنة العثمانية على إسلام شمالي إفريقية من أخطار الغزو الصليبي البرتغالي والأسباني، ومنظمة القديس يوحنا الصليبية، فدخلت الجزائر وطرابلس وتونس تحت سيادة الخلافة العثمانية، وكان ذلك نتيجة دعوة من أهالي هذه المناطق وليس تدخلاً مباشراً مثلما حدث في مصر والشام والعراق.

ولا ينكر ما حققته الخلافة العثمانية من وحدة بين الولايات العربية في الشرق العربي، فاحتفظت هذه الولايات بمقوماتها من الدين الإسلامي واللغة

obeikandl.com

العربية والثقافة العربية الإسلامية، أو التحرك الميسور بين هذه الولايات، وكان الدين والحفاظ عليه أكبر المحركات في هذه العصور، ولم تخرج هذه البلاد من الخلافة العثمانية إلا إلى أجزاء متفرقة تحت الاحتلال الفرنسي والبريطاني.

وكانت الدولة العثمانية لليهود بالمرصاد، فعندما فتح السلطان سليم الأول مصر أصدر مرسوماً يمنع هجرة اليهود لسيناء؛ لأن اليهود كانوا يريدون استيطان ذلك الإقليم الذي يضم الوادي المقدس طوى الذي كلم الله فيه موسى، وأكد هذا المرسوم سليمان القانوني.

غير أن اليهود نزحوا في هجرات متقطعة إلى سيناء منذ عهد مراد الثالث (٩٨٢هـ-١٠٠٥هـ) وتركزت إقامتهم في مدينة الطور ليسهل لهم الاتصال باليهود في البلدان المجاورة، وتزعم حركة الهجرة يهودي اسمه أبراهام، وكان يمكن أن تكثر هذه الهجرات لولا هجوم اليهود على رهبان ديرسانت كاترين، فطردت الدولة العثمانية اليهود من المنطقة.

وعندما احتلت بريطانيا مصر (١٣٠٠هـ-١٨٨٢م) عاود اليهود المطالبة بالهجرة لسيناء وأطلقوا عليها فلسطين المصرية، ووكل هرتزل زعيم المنظمة الصهيونية العالمية في مفاوضات مع جوزيف تشمبرلين وزير المستعمرات ولوردلا نزدون وزير الخارجية على السماح لليهود بسكنى سيناء، فوافق الوزيران على الاقتراح، فعارض ذلك السلطان عبدالحميد الثاني وتوقف الاقتراح.

والحقيقة التي لا مراء فيها أن العثمانيين أدخلوا الإسلام لأوربا وحملوا لواء الجهاد في هذه البلاد، ففتحت مدينة القسطنطينية وسميت إسلامبول، واستولى سليمان القانوني على بلغراد وجزيرة رودس وبودابست، وبلغت مشارف فيينا عاصمة النمسا مما أوجد روحاً عدائية بين أوربا الصليبية والدولة العثمانية المسلمة، وعامل العثمانيون الأوربيين معاملة حسنة، كما تقتضي الروح الإسلامية.

وبالجملة فإن أبرز إيجابيات الدولة العثمانية.

* توسيع رقعة الأرض الإسلامية، ففتحوا بلداناً في أوربا، ووقفوا على أبواب ڤيينا، ووقفوا في وجه الصليبيين في كل الجهات، في شرقي أوربا ليخففوا الضغط عن مسلمي الأندلس، وفي شمال البحر الأسود، فدعموا التتار في شبه جزيرة القرم ضد الصليبيين من الروس، وتصدوا للأسبان والبرتغاليين في البحر المتوسط والخليج وشرقي إفريقية، وحمت أقطار المشرق من هجمات الاستعمار؛ لأنها كانت تضم معظم البلاد العربية باستثناء المغرب بالإضافة إلى شرقي إفريقية وتشاد وتركيا وبلاد القفقاس وبلاد التتار وقبرص وأوربا، فوصلت مساحتها إلى حوالي ٢٠ مليون كم^{2}.

وكان عند العثمانيين صدق ولاء للإسلام، فأعفوا طلبة العلم من الجندية الإلزامية، وأصدروا المجلة الشرعية التي ضمت فتاوى العلماء، وأكرموا أهل

القرآن وخدموا الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى وسبحان من له الكمال، فلم تسلم هذه الدولة من السلبيات التي أثّرت في مسيرتها، ومنها:

إهمال اللغة العربية مما نتج عنه الاهتمام بالتركية أكثر من لغة القرآن رغم الاهتمام بالمدارس العربية، لكن هذه السلبية كانت حاجزاً بين العثمانيين والبلدان العربية، وجعلت معرفة السلاطين بالإسلام سطحية متمثلة في الصلاة والعبادات.

وآفة الحكم العثماني وما نتج عن ذلك من المؤامرات بين الأشقاء في الأسرة الواحدة تنازعاً على السلطة، أو الزواج من الأجنبيات.

ولم يجتهد العثمانيون كثيراً في نشر الإسلام في البلاد الأوربية بل تركوها على عقيدتها ولغتها وعاداتها.

والإيجابيات تكون دائماً في عصور القوة والتوسع والخلفاء الأقوياء، والسلبيات تخرج وتزداد في مراحل الضعف والانهيار.

يكمل العرض السياسي السابق ما قدمته الدولة العثمانية للحضارة الإسلامية، وأبرز معالم الدولة العثمانية حضارياً اتساع الدولة التي حكمها العثمانيون، فشملت عدة عناصر وأدياناً ولغات وثقافات، حرصوا على أن تكون الإدارة وفق الشرع الإسلامي، فحوت الدولة المسلمين، ونسبة كبيرة

من النصارى الأرثوذكس في البلقان، ونسبة أقل في الشام والعراق من الأرثوذكس والسريان والموارنة، وحوت كذلك اليهود الموزعين على المدن التجارية والمدن الإسلامية الكبرى مثل القاهرة والإسكندرية وأزمير، وتمتع غير المسلمين بحريتهم الدينية كاملة.

وشملت الدولة من الناحية العنصرية الأتراك ولهم السلطان بسبب أن الحكم وراثي، والعرب ويمثلون نسبة كبيرة في المجتمع، إضافة الأكراد والجركس وهم من المسلمين، ثم الأرمن والروم واليونان والسلاف (الصقالبة) وهم من النصارى.

وعمل الأتراك على انتشار اللغة التركية في الإدارة، واحترمت اللغة العربية في بلادها، وكانت لغة التأليف والدين، ولم تجبر الدولة أحداً على ترك لغته وثقافته، فكان لغير المسلمين لغتهم وثقافتهم وتقاليدهم وتراثهم، وكان منصب الصدر الأعظم الذي بمنزلة رئاسة الوزارة له دور في السلطة.

ودخل المرتزقة الجيش العثماني بدلاً من القوى الإقطاعية، وكانت أقدم فرقهم السباهية (فرسان الباب العالي) وكوّنوا أربع فرق، يزيد عدد الفرقة الواحدة على ١١٫٠٠٠ فارس.

وشكل الانكشارية قوام الجيش العثماني، ويؤتى بهم من سائر البلدان، ويربون في أدرنة وإستامبول تربية إسلامية، ويختار منهم كل سنة ما بين ٢٥ إلى ٣٠ شاباً يُعَدون للمناصب العليا في الدولة والبلاط، كالصدر الأعظم وغيره، ونظمت الإنكشارية أيام سليم الأول، ولم يزد عدد الإنكشارية على ١٥ ألف رجل، وفسدوا مع الأيام، فأكرهوا السلطان سليم الأول على قطع رؤوس الصدر الأعظم وقاضي العسكر وقائدهم أثناء الحرب مع الفرس، ويطالبون بالهبات السخية مع تولية سلطان عثماني جديد، ولذلك حاولت الدولة إضعافهم عن طريق تفريقهم وتوزيعهم على حاميات الحدود، فكان منهم في إستامبول ٤٠٠٠، وكانت بداية فسادهم السماح لهم بالتزاوج، فأصبح الانتماء للجيش الانكشاري وراثياً ففقد صلابته، وقويت الانشكارية بالمتطوعين وقدرهم ٥٤,٠٠٠، وأخذت الفرق المحاربة تهزم في المعارك، وصارت هذه الفرق عبئاً على الدولة حتى إن السلطان محمود الثاني ضرب ثكناتها بالمدافع للخلاص منها وتطبيق الإصلاحات سنة ١٨٢٦م.

ودخلت الأسلحة النارية إلى فرق الفرسان والمشاة، لكن العثمانيين وجهوا عناية خاصة للمدفعية في حروبهم الأوربية، فاستقدم محمد الثاني صنّاع المدافع والمختصين بها فصنعوا له أحدث مدافع الدنيا لحصار المدن، فبلغ عدد أفراد الفرقة المدفعية أيام سليم الأول فاتح مصر والشام ألفي رجل. وآغا

الانكشارية هو قائدها، وهو شخصية بالغة الأهمية، فهو من ناحية قائد أقوى أداة عسكرية تحت يد السلطان، ومن ناحية أخرى كان يعمل مديراً للشرطة في إستانبول، كما كان بحكم منصبه عضواً بمجلس الدولة ومقدماً على جميع الوزراء الذين تقل مرتبتهم عنه.

ولم يغض العثمانيون الطرف عن البحر، وهم الممتدون على ثلاثة بحار: الأسود والمتوسط والأحمر، وحاجات التجارة، والتصدي للأساطيل الأوربية، ومنها انتصار البنادقة على العثمانيين في غاليبولي ٨١٩هـ/ ١٤١٦م، فأنشأ محمد الفاتح الأسطول البحري، وكسب سمعة كبيرة حيث انطلقت ١٨٠ سفينة فأغارت على سواحل بحر إيجة، وواصل سليم الأول الجهد البحري، وزاد سليمان الكبير عدد السفن إلى ٣٠٠ سفينة، وعقد الصلات مع خير الدين بربروسا غربي البحر المتوسط، فمد القوة البحرية إلى تلك الشواطئ مكوناً قوة بحرية تجارية وعسكرية مرهوبة الجانب، غير أن الأسطول تدهور لأن القائمين عليه من الرعايا البلقان، وزاد التدهور نظام البدل الذي أصبح مورداً مالياً لا تستغني الدولة عنه.

كان السلطان هو رأس الجهاز الإداري والسياسي والعسكري، تضرب باسمه السكة، ويخطب باسمه على المنابر، وأول من تلقب بلقب السلطان

obeikandi.com

هو السلطان بايزيد الأول، ولما فتح العثمانيون القسطنطينية تلقب بلقب (سلطان البرين وخاقان البحرين)، وبعد فتح أدرنة تلقب مراد الأول بخليفة الله، وكان السلطان يعيّن أبناءه حكاماً في الولايات ليتمرسوا بالسياسة والإدارة.

أما الصدر الأعظم فكان أكثر من مستشار، ومع ظهور الوزراء أصبح الصدر الأعظم منصباً خطيراً، وخاصة بعد إصدار محمد الثاني قانون نامة، وجعل الصدر الأعظم وصياً فعلياً على الدولة وبيده الخاتم السلطاني وتشريفات البلاط واجتماع الباب العالي، وبرز في منصب الصدر الأعظم: إبراهيم الأعظم ومحمد صقللي.

وكان الديوان هو المجلس الوزاري يضم مع الوزراء أركان الدولة: شيخ الإسلام، وقاض العسكر، وبعض القضاة والدفترداريين (المشرفين على الشؤون المالية) وأمير البحر، وصاحب التوقيع، وكان الولاة يختارون من الباشوات ضباط الفرق العسكرية، وينقلون من ولاياتهم باستمرار لئلا يفكرون بالاستقلال والثورة، وكان قاضي العسكر ممتد السلطة على الجيش والقضاء المدني، وله تعيين القضاة في مختلف المناطق، غير أنه خاضع لقاضي إستانبول الموصوف بشيخ الإسلام.

وعرفت السلطنة العثمانية الطرق الصوفية المتعددة منها النقشبندية والمولوية والبكتاشية والكيلانية والرفاعية.

وعرف العصر العثماني تراثاً ضخماً من العمران متمثلاً في بناء المساجد والقصور والتكايا والحمامات وسبل الماء والمشافي والجسور والقلاع، وترك العثمانيون أبنية ضخمة في نيقية عاصمتهم الأولى، وفي بورصة وأدرنة وأزمير وغيرها ومدن الولايات كدمشق والقاهرة وحلب والقدس وبغداد وعكا.

ومن المؤسف أن دخول البلاد العربية والإسلامية في حوزة العثمانيين رافقه أمران:

أولاً- انفتاح أوربا على العالم ومعرفة أمريكا، وطريق الهند، وهجوم الغرب على المسلمين في إفريقية غرباً وشرقاً، وجنوبي بلاد العرب والهند، وأغلق الغرب على العالم الإسلامي مضيق جبل طارق وباب المندب وبوابة الخليج العربي،ثم قيام روسيا القيصرية التي ضيقت على المسلمين الأتراك.

ثانياً- انغلاق البلاد العربية وسوء أحوالها الاقتصادية، وانقطاع طرق التجارة العالمية عبر البلاد العربية، فاتجهت الحالة الثقافية إلى الثبات ثم الركود، وغلب على الحياة الفكرية الاجترار والتكرار والركود، وانصرفت الأذهان إلى التهميش والتعليق والشرح والاختصار والحواشي.

obeikandi.com